١٩ - تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها ، وعاداتها ، ودياناتها

ترجمة حسن حبشي

ومهما يكن من أمر صاحب هذه القصيدة فان أبياتها تتضح بالوثنية، وأسلوبها يدل على ذلك ، كما أن أهميتها القصوى تتضح لنا من أنها أثارت جوته Goethe بعد أن قرأ ترجمتها باللاتينية فقام بطبع ترجمة لها بالألمانية مع نقد جميل للشعر في « الديوان الشرقي West-Oestricher Divan [1] »

وفي هذه القصيدة [2] نرى الشاعر يصور كيف يلج به الثأر لخاله الذي قتله هذلي ، ويصف بطولة القتيل وخلقه والغزوة التي قام بها وانتصاره (الشاعر) في النهاية على خصومه وظهوره عليهم فيقول :

إن بالشِّعب الذي عندَ سَلْعٍ ... لقتيلا دَمُهُ ما يُطَلُّ
خلفَ العِبءِ عليّ وولى ... أنا بالعبءِ له مستقل
ووراء الثأرِ مني ابنُ أختٍ ... مَصَع عقدَتَهُ ما تُحَل
مُطرِقٍ يَرْشح سَماً كما أطـ ... ـرقَ أفعَى يَرْشح السُّمَّ صِلّ
خَبَر ما نابَنَا مُصْمَئِلٌّ ... جلَّ حتى دقَّ فيه الأجل
بزَّني الدهرُ وكان غَشوماً ... بأبيّ جارُه ما يُذَل
شامس في القُرِّ حتى إذا ما ... ذَكَتِ الشِّعرَى فَبَرْدٌ وظِل
يابسُ الجنبينِ من غيرِ بؤس ... وندِي الكفين شهم مُدِل
ظاعن بالحزْم حتى إذا ما ... حلَّ: حلَّ الحزْم حيث يَحُل
غيثُ مزْنٍ غامرٍ حيثُ يُجدِي ... وإذا يَسْطو فليثُ أبل
مسبل في الحيِّ أحوَى رِفِل ... وإذا يغزُو فسِمْع أزَل [1]
وله طعمان أرْى وشَرًى ... وكِلا الطعمَينِ قد ذاقَ كل
يركبُ الهولَ وحيداً ولا يَصْـ ... ـحبُهُ إلا اليماني الأفَل

* * *

وفتُوٍّ هجروا ثم أسَرَوْا ... ليلهم حتى إذا انجابَ حلوا
كلُّ ماضٍ قد تردَّى بماضٍ ... كسَنا البرقِ إذا ما يُسَل
فادَّرَكْنا الثأرَ منهم ولمَّا ... ينجُ مِ الحيَّين إلاَّ الأقلُّ
فاحتَسَوْا أنفاسَ نوْمٍ فلمَّا ... هوَّموا رُعْتُهم فاشمَعلُّوا [2]
فلَئِنْ فَلَّتْ هُذَيلٍ شَباهُ ... لبما كان هذيلاً يَفِلُّ
وبما أدرَكَها في مَناخٍ ... جَعْجَعٍ ينقُبُ فيهِ الأصَل
وبما صبَّحَها في ذُرَاها ... منهُ بعدَ القتلِ نَهب وشَل

* * *

صليَتْ مني هُذيلٌ بخرْقٍ ... لا يَمِل الشرَّ حتى يَمَلوا
يُنهِلُ الصَّعْدَةَ حتى إذا ما ... نهلَتْ ، كانَ لها منهُ عَل
حلتِ الخمرُ وكانت حراماً ... وبلأيٍ ما ألَمَّتْ تحُلّ

---

(١) مما جاء في كتاب تراث الاسلام (الطبعة العربية اكتوبر ١٩٣٦) في الفصل الذي كتبه الأستاذ جب عن الأدب العربي قوله « وليس للأدب الفرق هنديا كان أم عربيا أم فارسيا أن يشغل في تاريخ الأدب الالماني في القرن التاسع عشر حيزا لم يشغله مثله من قبل في أوربا منذ عهدها بالادب الاسباني في القرون الوسطى وكان أول الزهر وأينعه في روضة الغرب كتاب جوته : West oslecher Divan » (ص ٢٠٨ س ٢ - ٨) المترجم

(٢) ذكر المؤلف قبل هذا كلاما ضربنا صفحا عن ترجمته لانه يشرح فيه لقراء الانكليزية ما صادفه من صعوبة في التوفيق بين البحر المديد الذي اتبعه الشاعر العربي وبين البحر الانكليزي الذي ترجمه به الاستاذ نيكلسون القصيدة ليكون قريبا منه في روحه وموسيقاه . (المترجم)

(١) الرفل : الواسع الثوب الكثير اللحم ، والسمع ولد الذئب (المترجم)
(٢) أي أسرعوا في الهرب

فاسقنيها ياسوادَ ابنِ عمرو إن جسمي بعد خالي لخَلِق (١)
تضحكُ الضبعُ لقتلى هُذيل وترى الذيب لها يستهل
وعِتاقُ الطيرِ تغدو بطاناً تتخطاهم فما تستقل (٢)

* * *

ولم تكن الفضائل التي استوعبها العربي عن الشرف معدودة كأنها صفات شخصية فطرية أو مكتسبة ، بل إرثاً ورثه الخلف عن السلف منذ القدم ، ولا بد له من أن يحافظ عليه تماماً حتى يسلمه إلى أبنائه دون أن تشوبه شائبة مّا ، ولم يكن الأمل ، في الخطوة بخلود النفس هو ما يحفز الشاعر العربي لأن « يقول القول ويفعل فعال الشرف » ، بل كان الرغبة في أن يقاسم أسلافه ذكرهم ، وينافسهم صيتهم ، وهو بهذا أبعد ما يكون عن الفلاح الاسكتلندي ، حين يقول في مثله الدارج « الانسان بشخصه أيّا كان أصله » لأنه كان ينظر نظرة الشك والريبة إلى هذه الجدارة التي ليس لها أصل مأثور عند الآباء :

وما تستوي أحسابُ قومٍ تورّثت
قديماً وأحسابٌ نَبَتْنَ مع البقلِ (٣)

وإن الحسب عندهم أشبه بحصن حصين قد جد في إقامته الآباء للأبناء أو كجبل شامخ يضرب بقنته في أجواز الفضاء ، يرتد عنه مهاجموه بالفشل دون أن ينالوا منه شيئاً (٤) ، وكان الشعراء يعرفون جيداً المفاخر والمثالب ، فيتشدقون بالأولى بشرف أجدادهم وكرم أرومتهم ، ويتخذون الثانية أداة ينالون بها من أعدائهم دون رعاية أو اهتمام بقواعد الأدب والحشمة .

* * *

لقد وجهت عنايتي أن أورد في هذا المجال بعض الصفات الخاصة للشعر العربي إذا ما قورن بالشعر العبري أو الفارسي أو الانكليزي ، ولكن لما كان إيراد الأمثال ذا جدوى غير منكورة فإني أبدأ حالا بالتكلم عن القصائد الشهيرة بالمعلقات التي تحتل مكانة سامية ، وذروة رفيعة في الأدب العربي

* * *

الأرجح أن كلمة معلقة (١) قد اشتقت من قولهم « علق » أي الشيء النفيس الثمين العالي المستوى . إما لأن الانسان يتعلق بها تعلقا شديدا ، أولأنها تعلق في مكان شريف أو بين واضح كبيوت المال أو في خزائن عامة (٢) ، وعلى مر الزمن تنوسي المدلول الحقيقي لكلمة معلقة ، وأصبح من الضروري ايجاد تفسير مقبول منصوب لها . وهنا ظهرت الخرافة التي أصبحت فيما بعد مألوفة لطول تكرارها . وكثرة استعمالها ، والتي تزعم أن تسمية المعلقات بهذا الاسم ، راجعة لتعليقها بأستار الكعبة تقديرا لفضلها الذي قضى لها به المحكمون في عكاظ على مقربة من مكة ؛ حيث يجتمع الشعراء متنافسين في انشاد أروع ما دبجته قرائحهم ، وأنها كانت تكتب بماء الذهب ، على القباطي (٣) الواردة من مصر قبل تعليقها على الكعبة .

« يتبع »

حسن حبشي

---

(١) كان من عادة العربي إذا قتل له قتيل ألا يشرب الخمر أو يمس النساء حتى يثأر له .

(٢) الحماسة ص ٢٨٢ وما يليها .

(٣) الحماسة ٦٧٩

(٤) قارن هذا بما سيرد بعد قليل في معلقة الحارث

(١) إن أحسن طبعة للمعلقات هي تلك التي نشرها سير شارلز ليل سنة ١٨٩٤ (طبعة كلكتا) وسماها A Commentary on Ten Ancient Arabic Poems وهي تشمل إلى جانب المعلقات السبع المتفق عليها ثلاثة قصائد أخريات للأعشى والنابغة الذبياني وعبيد بن الأبرص ، كما ترجم تلك خمس معلقات (سقط معلقتي امرىء القيس وطرفة) . وأرفق بها شرحا بالألمانية في Sitzungsbevichte der kais. Akad. Der Wissenschaften in Wien, Philo. Histor. Klasse, Vols: 140-144 (1899-1901).

وتلك إلى حد بعيد أمتع ترجمة للباحثين والطلاب ، وليست هناك في النثر الانكليزي أية ترجمة مقنعة ، ولكني أشير على القارىء بمراجعة الترجمة الشعرية الانكليزية التي بلغت الغاية في الجمال والروعة وإن يكن فيها شيء قليل من التصرف وهي التي نظمتها لادي أن بلنت Anne Blant وسير ولفرد سكادن بلنت وسماها : The LevenGolden Odes of Pagan Arabia (London 1903)

(٢) راجع مقدمة سير شارلز ليل لكتابه An Cient Arabian Poetry وقد اقترحت عدة تفسيرات أخرى نحو « القصائد التي كتبت بالاملاء الشفهي » كما يقول فون كريمر ، أو « السور المذهبات » كما يسميها أهلواردت ، أو « الأسماط » كما لو كانت لآلىء مدلات من قلائد كما يدعوها أوجست موللير

(٣) يظهر أن الاعتقاد بأن المعلقات قد كتبت بماء الذهب ناشيء عن الخطأ في فهم اسم « المذهبات » (بسكون الذال وفتح الهاء) أو المذهبات (بفتح الذال وتشديد الهاء المفتوحة) أي القصائد المكتوبة بالذهب ، وهو الاسم الذي يطلق عليها أحيانا نظرا لفخامتها ، كما هو الحال عند الأغريق الذين أطلقوا اسم « خرايسا أي » Khrousia Epi على قصيدة نسب زورا إلى تيثاغورس أما القول بأن بعضا من المعلقات قد أنشد في سوق عكاظ فهذا أغلب ما يحتمل بل ماقد تأكد بشأن ما كان من معلقة عمرو بن كلثوم (الأغاني ج٩ ص٢٢)